



المبحث الأول
القرآن وعلومه

القرآن وعلومه

تمهيد :

عرف ابن عباس { بالحرص على حفظ القرآن الكريم ، وتعلم أحكامه ، والاهتداء بهديه ، منذ أن صحب النبي ﷺ ، حيث جمع في عهده المفصل ^(١) .

ثم طفق يسأل الصحابة العالمين بالقرآن بعد وفاته ﷺ . ومما ذكر أنه كان يسألهم عنه : ما نزل من القرآن المتعلق بمغازي رسول الله ﷺ . وسأل أبي بن كعب عن آي القرآن المدني ^(٢) .

وقال الذهبي : «وقرأ كثيراً على أبي وزيد» ^(٣) .

وأخرج ابن سعد بسنده عن عامر الشعبي أنه قال : «أخذ ابن عباس لزيد بن ثابت بالركاب ، وقال : هكذا يفعل بالعلماء والكبراء» ^(٤) .

وبهذا يكون عبد الله بن عباس من الأوائل الذين اهتموا في مرحلة الطلب بالتفسير الموضوعي - لأنه كان يسأل عن القرآن المتعلق بمغازي رسول الله ﷺ - وبمعرفة القرآن المكي والمدني - إذ سأل عنه أبي بن كعب - ومن الأوائل

(١) البداية والنهاية لابن كثير : ٣٠٥ / ٨ (أحداث سنة ٦٨هـ) .

(٢) طبقات ابن سعد : ٣٠ / ٢ (ذكر من كان يفتي بالمدينة ويقتدى به) .

(٣) سير أعلام النبلاء : ٤٣٩ / ٤ ، رقم ٢٧٣ (ترجمة ابن عباس) . والمعلوم أن أبي بن كعب وزيد بن ثابت كانا من قراء الصحابة ، ومن جمعوا القرآن على عهد رسول الله ﷺ . طبقات ابن سعد :

١٧ / ٢ (ذكر من جمع القرآن على عهد رسول الله ﷺ) .

(٤) طبقات ابن سعد : ٣١ / ٢ (ذكر من كان يفتي بالمدينة ويقتدى به) في ترجمة زيد .

الذين حرصوا على تجويد القراءة ، وملازمة الشيوخ ، وتعظيمهم وإظهار فضلهم .

ولم تمر أعوام قلائل حتى بزغ نجم ابن عباس في القرآن ، وأصبح يشار إليه بالبنان ، وتحقق فيه قول النبي ﷺ : « اللهم فقهه في الدين ، وعلمه التأويل »^(١) . واستحق من عبد الله بن مسعود - وهو من هو - أن ينعت به « ترجمان القرآن »^(٢) . وقربه الخليفة الراشد عمر بن الخطاب ، وجعله من مستشاريه مع حداثة سنه^(٣) .

ثم لما استقر به المقام بمكة اجتمع عليه نخبة من شبابها والوافدين عليها ، وشرع يدرسهم مجموعة من العلوم ، في مقدمتها القرآن : حفظاً ، وأداءً ، وتأويلاً^(٤) . وقبل ذلك كان لطلاب القرآن وعلومه بمكة لقاءات مع ابن عباس . وذلك عندما كان يأتي إليها أميراً على موسم الحج^(٥) .



(١) رواه الحاكم في معرفة الصحابة : ٥٣٤ / ٣ . وقال : هذا حديث صحيح الإسناد ، ولم يخرجاه . وقال الذهبي : صحيح . وأخرجه ابن سعد في طبقاته ٢ / ٢٥ في ترجمة ابن عباس (ذكر من كان يفتي بالمدينة ويقتدى به) .

(٢) طبقات ابن سعد : ٢ / ٢٦ .

(٣) سير أعلام النبلاء : ٤ / ٤٤٦ - ٤٤٨ ، رقم ٢٧٣ .

(٤) مصطلح « التأويل » في هذه المرحلة كان يطلق على التفسير .

(٥) ينظر : - مثلاً - سير أعلام النبلاء : ٤ / ٤٥١ رقم ٢٧٣ .

المطلب الأول

منهج ابن عباس في تلقين القرآن وعلومه

بين أيدينا اليوم نصوص تفيد أن ابن عباس كان يخصص حصّة للأداء والحفظ ، وحصّة للأداء مع التفسير ... وكان يحرص على ذلك أشد الحرص : من هذه النصوص قول مجاهد : « عرضت القرآن على ابن عباس ثلاثين عرضة »^(١) .

فهذا العدد الكبير من المرات ، الظاهر فيه أنه كان لأجل الحفظ والضبط ، وإتقان الأداء .

أما العرض لأجل الفهم والفقه ، ومعرفة أسباب النزول ، والناسخ والمنسوخ ، فيقول فيه مجاهد أيضا : « عرضت القرآن ثلاث عرضات على ابن عباس ، أقفه عند كل آية ، أسأله فيم نزلت ؟ وكيف كانت ؟ »^(٢) .

أما عكرمة مولى ابن عباس فيترجم حرص ابن عباس الشديد على أن يحصل طلبته القرآن حفظا وأداء وتأويلا بقوله : « كان ابن عباس يضع في رجلي الكبل (القيد) على تعليم القرآن والسنن »^(٣) .

(١) طبقات ابن سعد : ٤ / ٢٣٢ ، رقم ١٥٣٥ (ترجمة مجاهد) .

(٢) سير أعلام النبلاء : ٥ / ٣٧٧ و ٣٨٢ ، رقم ٥٤٢ (ترجمة مجاهد) .

(٣) السابق : ٥ / ٥٠٥ رقم ٦٢٣ (ترجمة عكرمة) . وفي ميزان الاعتدال للذهبي أيضا : (٣ / ٩٥) :

«الفقه» عوض «السنن» .

ومن خلال هذه النصوص نستفيد أموراً في منهج ابن عباس في غاية الأهمية :

الأمر الأول : أن ابن عباس كان يعتمد في تدريس القرآن على ما يسمى عند المحدثين بـ«القراءة على الشيخ» . ويرجح بعض العلماء هذه الطريقة في التحمل على السماع ^(١) .

ولا يستحسن أن يختلف في أنها أفضل من السماع إذا تعلق الأمر بالقرآن؛ لأنها تقف الشيخ بسهولة على الأخطاء التي يمكن أن تصدر عن المتلقي .

الأمر الثاني : أن ابن عباس كان يحض طلبته على الاعتماد على الذاكرة إلى جانب الكتابة . وهكذا كان صنيع رسول الله ﷺ مع أصحابه .

الأمر الثالث : أن ابن عباس كان يعتني بالحفظ مع دقة التجويد . وهذا هو السر في العروض الكثيرة في نص مجاهد الأول .

الأمر الرابع : أن ابن عباس كان يفسر القرآن كله ، سوى بعض الألفاظ الغريبة التي صرح ابن عباس بأنه لا يعرف معناها ^(٢) .

وهذا أمر تواترت النصوص على معناه ، وعادة دأب عليها ابن عباس حتى قبل أن يستقر بمكة : فقد ذكر الحسن البصري أن ابن عباس قرأ بالبصرة

(١) ينظر : معرفة علوم الحديث لابن الصلاح ، ص : ١٢٢ .

(٢) روي عنه أنه لا يعرف معاني (الرقيم) و(غسلين) و(وحنانا) . ينظر سير أعلام النبلاء : ٤/٤٤٧

سورة البقرة ، ففسرها آية آية ^(١) .

الأمر الخامس : أن رغبة ابن عباس في أن يعرف أصحابه أسباب نزول بعض آي القرآن كانت تنال من اهتمامه حظا وافرا . ذلك أن كثيرا من الآيات لا تفهم على حقيقتها إلا إذا عرفت الظروف التي نزلت فيها . ولذلك فإن ابن عباس نفسه كان أيام الطلب يسأل الصحابة عن ذلك .



(١) وهذا لا يتنافى مع ما ذهب إليه الدكتور محمد حسين الذهبي من أن من مميزات التفسير في عهد الصحابة أن القرآن لم يفسر جميعه ، «وإنما فسر بعض منه ، وهو ما غمض فهمه»؛ لأن طبيعة التفسير كذلك : فالواضح لا يفسر . ينظر : التفسير والمفسرون : ٩٧ / ١ . ومع ذلك يمكن أن أقول : إن ما ذهب إليه الدكتور الذهبي بخصوص مميزات هذه المرحلة ليس دقيقا . والبحث لا يتسع لتوضيح ذلك .

المطلب الثاني

قيمة الشعر في تفسير ابن عباس

من منهج ابن عباس أنه كان يستعين في تفسير بعض الألفاظ الغريبة بالشعر العربي ، وكان يعتبره «ديوان العرب» .

ولقد أخرج ابن سعد بسنده «أن ابن عباس كان يسأل عن القرآن كثيرا ، فيقول : هو كذا ، وكذا ، أما سمعتم الشاعر يقول يقول كذا ، وكذا»^(١) .

ولقد أورد السيوطي في «إتقانه» طائفة من المسائل التي سئل عنها ابن عباس تتعلق بتفسير بعض الآيات ، وأجاب عنها ، وعزز أجوبته بإنشاد أبيات من الشعر الجاهلي^(٢) .

وهذه المسائل تعرف بمسائل نافع بن الأزرق «الذي صار بعد ذلك رأس الأزارقة من الخوارج . وكان يجالس ابن عباس بمكة ، ويسأله ويعارضه»^(٣) .

وجاء اسمه مبهما عند البخاري في صحيحه^(٤) : أهممه سعيد بن جبير عند حكاية قصته مع ابن عباس ، قال سعيد : قال رجل لابن عباس : إني أجد في القرآن أشياء تختلف علي ، قال : ﴿فَلَا أَفْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾

(١) طبقات ابن سعد : ٢٧/٢ .

(٢) ينظر : الإتقان في علوم القرآن : ١/١٢٠ ، والتفسير والمفسرون : ١/٧٤ - ٧٥ .

(٣) ينظر : فتح الباري : ٩/٥٢٣ (كتاب التفسير من صحيح البخاري ، سورة حم السجدة) .

(٤) صحيح البخاري ، كتاب التفسير ، سورة حم السجدة .

[المؤمنون: ١٠١] ، ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ [الصافات: ٢٧] ، ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٤٢] ، ﴿رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣] ، فقد كتموا في هذه الآية .

وقال : ﴿أَمِ السَّمَاءُ بَنَتْهَا﴾ ، إلى قوله : ﴿دَحَنَهَا﴾ [النازعات: ٢٧-٣٠] ، فذكر خلق السماء قبل خلق الأرض ^(١) .

قال ابن حجر عند شرحه لهذا النص : «وروى الطبراني ؛ من حديث الضحاك بن مزاحم ، قال : قدم نافع بن الأزرق ، ونجدة بن عويمر في نفر من رؤساء الخوارج مكة ، فإذا هم بابن عباس قاعدا قريبا من زمزم ، والناس قياما يسألونه ، فقال له نافع بن الأزرق : أتيتك لأسألك - فسأله عن أشياء كثيرة من التفسير ، ساقها في ورقتين ؛ وأخرج الطبري من هذا الوجه بعض القصة . ولفظه : إن نافع بن الأزرق أتى ابن عباس فقال : قول الله تعالى : ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ ، وقوله : ﴿رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ ، فقال - أي ابن عباس : إني أحسبك قمت من عند أصحابك ، فقلت لهم : أين ابن عباس فألقي عليه متشابه القرآن ...» ^(٢) .



(١) ينظر النص بطوله في صحيح البخاري ، كتاب التفسير ، سورة حم السجدة .

(٢) فتح الباري : ٥٢٣ / ٩ (سورة حم السجدة) .

المطلب الثالث

الإسرائيليات في تفسير ابن عباس

الإسرائيليات جمع إسرائيلية ، نسبة إلى بني إسرائيل ، وإسرائيل هو يعقوب عليه السلام ، وبنو إسرائيل هم سلالته وأبناؤه ، ويسمون أيضا باليهود^(١) .

ولقد كان ابن عباس يستعين في بعض ما يتعلق بالقصاص وأخبار الأقوام الغابرة بعلماء اليهود الذين اعتنقوا الإسلام كالصحابي الجليل عبد الله بن سلام^(٢) ، وكعب الأحبار^(٣) .

ويستفاد مما كتبه ابن كثير في مقدمة تفسيره أن ذلك اشتهر عن ابن عباس ، وعن عبد الله بن مسعود ، وأن ذلك مباح شرعا ... ثم استدرك ابن كثير قائلا : «ولكن هذه الأحاديث الإسرائيلية تذكر للاستشهاد لا للاعتضاد...»^(٤) .



(١) ينظر : مقدمة في أصول التفسير لابن تيمية ، (مقدمة المحقق محمود محمد محمود نصار ، ص : ٤١) .

(٢) توفي سنة ٤٣ هـ . ينظر تاريخ خليفة ص : ١٢٦ ، وسير أعلام النبلاء : ٤ / ٦٥ رقم ١٨٠ .

(٣) توفي سنة ٣٢ هـ . ينظر تهذيب التهذيب : ٣ / ٤٧١ .

(٤) ينظر بقية كلامه في هذا الموضوع في مقدمة تفسير القرآن العظيم : ٨ / ١ .

المطلب الرابع

أمور منهجية أخرى في تفسير ابن عباس

الظاهر أن ابن عباس كان لا يخلط حفظ القرآن بما يضاف إليه من تفسير ... يدل على ذلك قول مجاهد : «لو كنت قرأت قراءة ابن مسعود ، لم أحتج أن أسأل ابن

عباس عن كثير من القرآن مما سألت» ^(١) .

والظاهر كذلك أن من منهجه فتح باب الحوار والمناقشة مع طلابه أثناء الدرس ، وكان ينزل عن رأي بعضهم إذا رأى الصواب معه ، يقول عكرمة موله : «قرأ ابن عباس هذه الآية : ﴿لَمْ تَعْطُوا قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ [الأعراف: ١٦٤] ، قال ابن عباس : لم أدر أنجا القوم أم هلكوا . قال : فما زلت أئين ، أبصره ، حتى عرف أنهم قد نجوا . فكساني حلة» ^(٢) .

وكان يسمح لهم أن يتقدموا بين يديه ، دون استشارته ، فيجيبوا عن بعض

(١) سير أعلام النبلاء : ٥ / ٣٨٠ رقم ٥٤٢ . قلت : ابن عباس ومجاهد كانا يريان وجوب التابع في صوم كفارة الأيمان ، وفاقا لابن مسعود ، وللقراءة المروية عنه في ذلك ، إذ يضيف قيد «متابعات» إلى قوله تعالى : ﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ﴾ [المائدة: ٨٩] ، ينظر : أحكام القرآن للجصاص : ٢ / ٤٦١ ، باب الأيمان . وعندي أن هذا القيد تفسير من ابن مسعود ، وليس قرآنا ، لأنه لم يثبت بالتواتر . والله أعلم .

(٢) سير أعلام النبلاء : ٥ / ٥٠٧ في ترجمة عكرمة . وينظر : التفصيل حول قصة عكرمة مع ابن عباس في تفسير ابن كثير ، عند تفسير هذه الآية : ٣ / ٤٠٩ - ٤١٠ .

الأسئلة التي تلقى على ابن عباس؛ ويصوبهم إن أخطأوا . وهذا واضح مما أخرجه البخاري عن طاووس (ابن كيسان) «عن ابن عباس { أنه سئل عن قوله : ﴿إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى: ٢٣] ، فقال سعيد بن جبیر : قربى آل محمد ﷺ ، فقال ابن عباس : عجلت ^(١) ؛ إن النبي ﷺ لم يكن بطن من قریش إلا كان له فيه قرابة . فقال : «إلا أن تصلوا ما بيني وبينكم من القرابة» ^(٢) .



(١) أي أسرع في التفسير .

(٢) صحيح البخاري ، كتاب التفسير ، باب قوله (إلا المودة في القربى) ح ٤٨١٨ .

المطلب الخامس

نماذج من تفسير ابن عباس

أختار لك في نهاية الحديث عن ابن عباس ومنهجه في تدريس القرآن وعلمونه نماذج من تفسيره مسندة صحيحة النسبة إليه ، من كتاب التفسير من صحيح البخاري .

المثال الأول : قال البخاري : «حدثنا الحميدي^(١) ، حدثنا سفيان^(٢) ، حدثنا عمرو^(٣) ، قال : سمعت مجاهدا ، قال : سمعت ابن عباس { يقول : كان في بني إسرائيل القصاص ، ولم تكن فيهم الدية ، فقال الله تعالى لهذه الأمة : ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقَصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحَرْبِ بِالْحَرْبِ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأَنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾ فالعفو أن يقبل الدية في العمد ؛ ﴿فَأَتْبَاعُ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءُ إِلَيْهِ بِإِحْسَنٍ﴾ يتبع بالمعروف ، ويؤدي بإحسان ؛ ﴿ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾ : مما كتب على من كان قبلكم ؛ ﴿فَمَنْ أَعْتَدَى بِكَ فَلَكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٧٨] : قتل بعد قبول الدية»^(٤) .

(١) هو عبد الله بن الزبير الحميدي المكي ، من رواة فقه الشافعي (ت ٢١٩هـ) .

(٢) هو ابن عيينة ، شيخ الحميدي .

(٣) هو ابن دينار . ورجال السند مكيون .

(٤) صحيح البخاري ، كتاب التفسير ، باب «يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص» ح ٤٤٩٨ .

المثال الثاني : قال البخاري : «حدثني إسحاق^(١) ، أخبرنا روح^(٢) ، حدثنا زكريا بن إسحاق^(٣) ، حدثنا عمرو بن دينار ، عن عطاء سمع ابن عباس يقرأ : «وعلى الذين يطوقونه فدية طعام مساكين» ، قال ابن عباس : ليست بمنسوخة ، هو الشيخ الكبير ، والمرأة الكبيرة ، لا يستطيعان أن يصوما ، فيطعمان مكان كل يوم مسكينا : ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ [البقرة: ١٨٥]»^(٤) .

المثال الثالث : قال البخاري : «حدثنا محمد بن يوسف^(٥) عن ورقاء^(٦) ، عن ابن أبي نجيح^(٧) ، عن عطاء ، عن ابن عباس } قال : كان المال للولد ، وكانت الوصية للوالدين ، فنسخ الله من ذلك ما أحب ، فجعل للذكر مثل حظ الانثيين ، وجعل للأبوين لكل واحد منهما السدس والثلث ، وجعل للمرأة الثمن والربع ، وللزوج الشطر والربع»^(٨) .

المثال الرابع : قال البخاري : «حدثنا محمد بن مقاتل^(٩) ، حدثنا أسباط بن

(١) هو ابن راهويه .

(٢) هو روح بن عباد بن العلاء البصري . تنظر ترجمته في تهذيب التهذيب : ٦١٤ / ١ .

(٣) وهذا مكّي (ينظر طبقات ابن سعد : ٢٤٨ / ٤ رقم ١٦١٨) ، وكذلك الشأن في عمرو بن دينار وعطاء بن أبي رباح .

(٤) صحيح البخاري ، كتاب التفسير ، الباب ٢٥ من سورة البقرة (ح ٤٥٠٥) .

(٥) هو محمد بن يوسف بن واقد ... ينظر : تهذيب التهذيب : ٧٣٩ / ٣ .

(٦) هو ورقاء بن عمر بن كليب ، نزيل المدائن . التهذيب : ٣٠٦ / ٤ .

(٧) عبد الله بن أبي نجيح ، مكّي ، سيأتي الحديث عنه .

(٨) صحيح البخاري ، كتاب التفسير ، باب (ولكم نصف ما ترك أزواجكم) (ح ٤٥٧٨) .

(٩) هو المروزي «سكن بغداد ، ثم جاور بمكة ، ومات بها» . التهذيب : ٧٠٧ / ٣ .

محمد^(١) حدثنا الشيباني^(٢) ، عن عكرمة ، عن ابن عباس - قال الشيباني : وذكره أبو الحسن السوائي ، ولا أظنه ذكره إلا عن ابن عباس^(٣) : ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لَتَذَهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ﴾ [النساء: ١٩] ، قال : كانوا إذا مات الرجل كان أولياؤه أحق بامرأته ، إن شاء بعضهم تزوجها ، وإن شاؤوا زوجوها ، وإن شاؤوا لم يزوجوها . فهم أحق بها من أهلها . فنزلت هذه الآية في ذلك^(٤) .

من خلال هذه الأمثلة الأربعة نلاحظ أن ابن عباس لم يكن اهتمامه منصبا على بيان معاني بعض الألفاظ والتراكيب القرآنية فحسب ، وإنما كان يصرف عنايته كذلك إلى أسباب النزول ، والناسخ والمنسوخ ، بل نجده يتعرض لبعض الآيات التي ادعي فيها النسخ ، فيبين أنها آيات محكمات ، لا نسخ فيها .



(١) ابن خالد بن ميسرة ، القرشي مولا هم ... ينظر التهذيب : ١٠٩ / ١ .

(٢) قال ابن حجر عند شرحه هذا الحديث : «سماه (أي البخاري) في كتاب الإكراه : سليمان بن فيروز» .

ينظر : فتح الباري : ١١٩ / ٩ .

(٣) ينظر : التعليق في فتح الباري .

(٤) صحيح البخاري ، كتاب التفسير ، باب (لا يحل لكم أن ترثوا النساء ...) ح ٤٥٧٩ .

المطلب السادس

طبقة كبار أصحاب ابن عباس

الذين أخذوا عنه علوم القرآن بمكة

تلقى القرآن وعلومه بمكة عن ابن عباس طائفة من التابعين ، من أهمهم مجاهد بن جبر (ت ١٠٣ هـ) ، وصفه الذهبي في صدر ترجمته بـ «الإمام ، شيخ القراء والمفسرين»^(١) .

وسبق التنصيص على أنه قرأ على ابن عباس القرآن كاملاً ، يسأله عن كل آية لا يعرف معناها ، أو لا يدري «فيم نزلت؟ وكيف كانت؟» ، مع كمال الحفظ ودقة التجويد .

ومنهم أبو عبد الله عكرمة البربري ، مولى ابن عباس^(٢) ؛ كان أعلم تلاميذ ابن عباس بالتفسير^(٣) . وصفه الذهبي في أول الترجمة بـ «العلامة ، الحافظ ، المفسر» .

ومنهم عطاء بن أبي رباح (ت ١١٤ هـ) ، مفتي أهل مكة المفضل ، ومحدثها المبرز بعد ابن عباس ، إلا أن رتبته في علوم القرآن دون رتبة مجاهد وعكرمة .

(١) سير أعلام النبلاء : ٣٧٧ / ٥ ، رقم الترجمة ٥٤٢ .

(٢) أرخه ابن كثير سنة ١٠٧ هـ . ينظر : البداية والنهاية : ٢٤٥ / ٩ . وينظر : الخلاف في وفاته في سير

أعلام النبلاء : ٥٢٠ / ٥ ، رقم ٦٢٣ ، وتهذيب التهذيب : ١٣٨ / ٣ .

(٣) سير أعلام النبلاء : ٥٠٦ / ٥ ، رقم ٦٢٣ .

ومنهم عبد الله بن عبيد الله بن أبي مليكة (ت ١١٧ هـ) ، قاضي ابن الزبير على الطائف^(١) .

ومنهم مقسم مولى عبد الله بن الحارث بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب (ت ١٠١ هـ) يقال له : مولى ابن عباس للزومه له . وهو في المرتبة دون أصحاب ابن عباس الأربعة المذكورين .

وأود هنا أن أنبه على أن الدكتور محمد حسين الذهبي قد أورد في بحثه «التفسير والمفسرون» سعيد بن جبير (ت ١٩٥ هـ) وطاووس بن كيسان اليماني^(٢) ضمن مدرسة التفسير بمكة^(٣) . والذي أختار أن يعد سعيد بن جبير في علماء الكوفة ، وأن يصنف طاووساً ضمن علماء اليمن . وهكذا يصنفهما بعض من ألف في الطبقات ، كالشيرازي وغيره . وقال ابن كثير في أول ترجمة طاووس : «... هو أول طبقة أهل اليمن من التابعين ...» . ونجد في صحيح البخاري^(٤) ما يفيد أن نشاط ابن جبير العلمي كان بالكوفة^(٥) . وفي علمائها عده ابن سعد وغيره .

(١) طبقات ابن سعد : ٢٣٧ / ٤ رقم ١٥٤١ .

(٢) ينظر : الخلاف في وفاته في تهذيب التهذيب : ٢ / ٢٣٥ . وأرخه الشيرازي في طبقاته ص : ٦٩ ، سنة (١٠٦ هـ) .

(٣) ولعله قلد في ذلك حاجي خليفة في كشف الظنون عند حديثه عن «علم التفسير» .

(٤) كتاب التفسير ، باب (ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم) (ح ٤٥٩٠) .

(٥) يقول سعيد بن جبير فيما أخرجه البخاري : «آية اختلف فيها أهل الكوفة ، فرحلت فيها إلى ابن

عباس ، فسألته عنها ، فقال : نزلت هذه الآية ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ﴾

[النساء: ٩٣] ، هي آخر ما نزل ، وما نسخها شيء .

صحيح أن سعيد بن جبير زار مرارا مكة أيام الحج ، وثبتت قراءته على ابن عباس ، وأنه مكث زمانا بمكة بعد موت ابن عباس ، أيام كان هاربا من بطش الحجاج . وصحيح كذلك أن طاووسا أخذ عن ابن عباس ، وأكثر روايته عنه ، وأن ابن عباس كان يجله ، ويأذن له بالدخول مع الخاصة؛ وأنه كان كثير التردد على مكة أيام موسم الحج ، وأنه مات بها في آخر حجة له ، بل إن قيس بن سعد المكي قال : «هو فينا مثل ابن سيرين في أهل البصرة»^(١) .

لكن مع كل هذا ، فإن نشاط سعيد بن جبير العلمي والسياسي كان بالكوفة ، ونشاط طاووس كان باليمن . والله أعلم .



(١) سير أعلام النبلاء : ٥ / ٥٢٤ . أنه أيضا على أن ابن حزم قد ذكر طاووسا ضمن المفتين بمكة عند حديثه عن فقهاء التابعين الذين روي عنهم الفتيا . الإحكام : ٥ / ٨٧٥ . وتبعه في ذلك ابن القيم في اعلام الموقعين في فصل المفتين بمكة . والخطب في ذلك يسير .

المطلب السابع

القيمة العلمية لكبار أصحاب ابن عباس

الحق أن أصحاب ابن عباس - بمن فيهم الذين كانوا بغير مكة كسعيد بن جبير لم يقتصر عطاؤهم العلمي على مكة وأهلها ، بل كانوا أيضا منارة استضاءت بها حركة التفسير في بلدان إسلامية أخرى . وهكذا ترى إماما من أئمة الكوفة - وهو سفيان الثوري - يقول : « أخذوا التفسير من أربعة : مجاهد ، وسعيد بن جبير ، وعكرمة ، والضحاك »^(١) . ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير أخذوا عن ابن عباس يقينا . والضحاك بن مزاحم الخراساني : من النقاد من ثبت أخذه عن ابن عباس ، ومنهم من ينكر ذلك . لكن نجد بعض الذين ينكرون يقر بأنه لقي سعيد بن جبير بالري ، فأخذ عنه التفسير^(٢) .

ولابن عباس وأصحابه في كتب التفسير حضور ظاهر لا تخطئه الملاحظة ، ولو كانت عابرة . فالحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات .

إلا أن الدارس لهذه الطبقة يلحظ أن درس التفسير بمكة يكاد يختص به مجاهد . ويلحظ كذلك أن شيخ قراءة المكيين ، والقائم بحفظ سندها ، والحريص على تواترها ، بعد ابن عباس : هو مجاهد أيضا . وقد نقل الذهبي

(١) سير أعلام النبلاء : ٥ / ٣٧٨ رقم ٥٤٢ (ترجمة مجاهد) .

(٢) ينظر تهذيب التهذيب : ٢ / ٢٢٦ .

عن الشافعي قوله : «حدثنا إسماعيل بن عبد الله بن قسطنطين^(١) ، قال : قرأت على شبل بن عباد^(٢) ، وقرأ على ابن كثير^(٣) ، وأخبره ابن كثير أنه قرأ على مجاهد ، وقرأ مجاهد على ابن عباس^(٤) .

فمجاهد يعد بحق شيخ القراء والمفسرين ، كما وصفه الذهبي .

أما عكرمة ، فإن كثرة مخالفته لابن عباس ، وتطوافه في البلدان للقاء الأمراء ونيل إعطياتهم وجوائزهم ، وما رمي به من الابتداع^(٥) . كل ذلك لم يسمح له أن يتبوأ المكانة التي تبوأها مجاهد^(٦) .



(١) هو من شيوخ الشافعي . ينظر توالي التأسيس ، ص : ٦٣ .

(٢) هو شبل بن عباد المكي القارئ ، سيأتي الحديث عنه .

(٣) عبد الله بن كثير ، أحد القراء السبعة ، سيأتي الحديث عنه .

(٤) سير أعلام النبلاء : ٣٧٧ / ٥ رقم ٥٤٢ .

(٥) اتهم بأنه كان يرى رأي الخوارج .

(٦) يقال إن مجاهدا أيضا كان كثير الأسفار والتنقل ؛ ويقال إنه سكن الكوفة بأخرة . وتفسير هذا - إن صح - أن يكون ذلك في الأعوام الأخيرة من حياته .

المطلب الثامن

مميزات التفسير عند هذه الطبقة

١ - من مميزات التفسير في هذه المرحلة : التوسع في الأخذ عن أهل الكتاب . وعرف ذلك عن مجاهد ، مما جعل طائفة من العلماء تتحاشى تفسيره ^(١) .

٢ - ومن مميزات التفسير عند هذه الطبقة كذلك : الاهتمام الكبير بالتفسير بالمأثور عن ابن عباس حتى أن أصحابه كانوا يجتمعون فيتذاكرون التفسير المروي عنه ، ويتنافسون في استظهاره ^(٢) . وكانوا يعتمدون على الحفظ إلى جانب التقييد في الكتاب . ولم تتسع ظاهرة تأليف الكتب بعد .

٣ - إلا أن هذا لا يعني أن أصحاب ابن عباس كانوا لا يخرجون عن تفسيره : فقد أكثر عكرمة من مخالفة ابن عباس . وعيب هذا الصنيع عليه . بل ذهب مجاهد - كما قال الذهبي - إلى «أقوال وغرائب في العلم والتفسير تستنكر...» ^(٣) .

ومن هذه الغرائب والأقوال التي استنكرت عليه : ما رواه الطبري من طريق عبد الله بن أبي نجيح ^(٤) ، عن مجاهد في قوله تعالى : ﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ [البقرة: ٦٥] ، قال : «مسخت قلوبهم ، ولم يمسخوا قردة . وإنما

(١) ينظر طبقات ابن سعد : ٤ / ٢٣٣ (ترجمة مجاهد) .

(٢) ينظر : سير أعلام النبلاء : ٥ / ٥٠٨ ، وتهذيب التهذيب : ٣ / ١٣٥ (ترجمة عكرمة) .

(٣) سير أعلام النبلاء : ٥ / ٣٨١ ، رقم ٥٤٢ .

(٤) سيأتي الحديث عنه .

هو مثل ضربه الله لهم : ﴿كَمَثَلِ الْجِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ [الجمعة: ٥] ، قال ابن جرير معقبا : وهذا القول الذي قاله مجاهد قول مخالف لظاهر ما دل عليه كتاب الله ... »^(١) .

كما عقب ابن كثير في تفسيره على تأويل مجاهد هذا بقوله : وهو «قول غريب خلاف الظاهر من السياق في هذا المقام وفي غيره ...» .

ثم ذكر ابن كثير أقوال العلماء - ومنهم ابن عباس - الذين فسروا هذه الآية على حسب الظاهر منها ، وقال : «والغرض من هذا السياق عن هؤلاء الأئمة بيان خلاف ما ذهب إليه مجاهد ~ : من أن مسخهم إنما كان معنويا لا صوريا . بل الصحيح أنه معنوي صوري . والله تعالى أعلم»^(٢) .

ومن الغرائب والأقوال التي استنكرت على مجاهد أيضا أنه قال في قوله تعالى : ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣] : «تنتظر الثواب من ربها ، لا يراه من خلقه شيء»^(٣) .

قال ابن كثير منتقدا : «...أبعد هذا القائل النجعة ، وأبطل فيما ذهب إليه . وأين هو من قوله تعالى : ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥] .

قال الشافعي - رحمه الله تعالى : «ما حجب الفجار إلا وقد علم أن الأبرار يرونه ﷻ» . ثم قد تواترت الأخبار عن رسول الله ﷺ بما دل

(١) ينظر : جامع البيان لابن جرير : ١/ ٢٦٣ عند تفسير الآية ٦٤ من سورة البقرة .

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ، عند تفسيره هذه الآية : ١/ ١٥٨ - ١٦٠ .

(٣) أخرجه ابن جرير عند تفسيره هذه الآية : ٢٩/ ١٢٠ .

عليه سياق الآية ...»^(١) .

وعلى الرغم من هذا الملحظ ، فإن مجاهد بن جبر يبقى إمام فن التفسير بعد ابن عباس بلا منازع . ونظرا لقيمة تفسيره جمع ابن كثير عند ترجمته في أحداث سنة ثلاث ومائة من البداية والنهاية طائفة من آي القرآن التي فسرّها مجاهد . كما أن البخاري اعتمد على تفسيره ، في كتاب التفسير من صحيحه . والنقول عنه فيه تُزاحم النقول عن ابن عباس^(٢) .



(١) تفسير ابن كثير عند الآيتين ٢٢ و ٢٣ من سورة القيامة . وينظر تفسير ابن جرير الطبري عند تفسير

الآيتين ، والتفسير والمفسرون : ١٠٦ / ١ .

(٢) ودونه في الرتبة عكرمة . ودونها عطاء ابن أبي رباح .

المطلب التاسع طبقة ثانية

ثم خلف من بعد كبار أصحاب ابن عباس خلف حفظوا المدرسة التفسير بمكة نشاطها ، وتوهجها العلمي ، وريادتها في علوم القرآن . من أهم هؤلاء : عمرو بن دينار (ت ١٢٦هـ) . أخذ بعض التفسير عن ابن عباس ^(١) . وروى عنه بواسطة عطاء ^(٢) وعكرمة ^(٣) .

ومن هؤلاء أيضا عبد الله بن كثير الداري ، أحد القراء السبعة الذين أجمعت الأمة على قراءاتهم . قرأ على مجاهد القرآن كما أسلفنا عند الحديث عن مجاهد؛ و«إليه صارت قراءة مكة ، وبه اقتدى أكثرهم» ^(٤) .

ومنهم كذلك عبد الله بن أبي نجيح يسار (١٣١هـ) . وصفه الذهبي بـ «الإمام الثقة المفسر» ^(٥) ، وأغلب تفسير مجاهد يروى عنه ^(٦) ، لأنه كان أخص به ^(٧) .

(١) من مروياته في التفسير عن ابن عباس : ما رواه البخاري في كتاب التفسير من صحيحه : الحديث رقم ٤٥١٩ والحديث رقم ٤٦٥٢ .

(٢) ينظر : - مثلا - صحيح البخاري ، كتاب التفسير ح ٤٥٩١ .

(٣) ينظر : - مثلا - صحيح البخاري ، كتاب التفسير ح ٤٧١٦ .

(٤) ينظر : تهذيب التهذيب : ٢ / ٤٠٨ .

(٥) سير أعلام النبلاء : ٦ / ٣٤٧ رقم ٨٦٩ .

(٦) وعن طريقه جاء تفسير مجاهد الذي بين أيدينا اليوم . ينظر «تفسير مجاهد» بتحقيق عبد الرحمن الطاهر السورتي . المنشورات العلمية . بيروت .

(٧) سير أعلام النبلاء : ٦ / ٣٤٧ .

المطلب العاشر

طبقة ثالثة

ثم نجد بعد هؤلاء شبل بن عبد المكي القارئ . روى عنه القراءة عبد الله بن زياد المكي ، وإسماعيل بن عبد الله بن قسطنطين ^(١) .

ونجد كذلك عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج (ت ١٥٠ هـ) ، شيخ علماء مكة في عصره ، وشيخ شيوخ الإمام الشافعي المكيين .

أهم ما يميز هذه الطبقة :

لقد عرف التفسير في هذه المرحلة تطوراً نوعياً تمثل في تأليف أول التفاسير . وذلك على يد عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج .

ولعل مما يفخر به أهل مكة أن ابن جريج أول من صنف الكتب . ومنها كتابه في التفسير؛ ذكره صاحب كشف الظنون ^(٢) ، ونص عليه فؤاد سزكين الذي يقول : «يعتمد ، فيما يبدو ، على كتب تفسير ابن عباس ، وعكرمة ، ومجاهد ، وعطاء بن أبي رباح ...» ويقول أيضاً : «واقتبسه الطبري برواية القاسم بن الحسن الهمداني (المتوفى سنة ٢٧٢ هـ) عن الحسين بن داود المصيصي (المتوفى سنة ٢٢٦ هـ) عن حجاج بن محمد المصيصي (المتوفى سنة ٢٠٦ هـ)» ^(٣) .

(١) تهذيب التهذيب : ٢ / ١٥٠ ، في ترجمة شبل بن عباد .

(٢) ينظر كشف الظنون لحاجي خليفة : ١ / ٤٣٧ .

(٣) ينظر تاريخ التراث العربي : ١ / ١٦٧ (في علوم القرآن والحديث) .

ومن مروياته عن ابن عباس : « ما أخرجه البخاري بسنده عنه عن يعلى بن مسلم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس } : ﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾ [النساء: ٥٩] ، قال : نزلت في عبد الله بن حذافة بن قيس بن عدي ، إذ بعثه النبي ﷺ في سرية» ^(١) .

وقد يروي عن ابن عباس بواسطة عبد الله بن عبيد الله ابن أبي مليكة ^(٢) . ومرة يروي عنه بواسطة سليمان الأحول ^(٣) عن مجاهد عنه ^(٤) .



(١) صحيح البخاري ، كتاب التفسير ، باب قوله (أطيعوا الله ...) (ح ٤٥٨٤) .

(٢) ينظر - مثلاً - صحيح البخاري ، كتاب التفسير (ح ٤٥٢٤ و ٤٥٣٨ و ٤٦٦٤) .

(٣) سليمان ابن أبي مسلم المكي ، خال ابن أبي نجيع . ينظر تهذيب التهذيب : ١٠٧ / ٢ .

(٤) صحيح البخاري (ح ٤٦٣٢) .

المطلب الحادي عشر

طبقة رابعة

وهي طبقة تلاميذ ابن جريج كمسلم بن خالد الزنجي (ت ١٨٠هـ) ،
وسعيد بن سالم القداح (توفي قبل المائتين) ، وعبد المجيد بن عبد العزيز بن أبي
رواد (ت ٢٠٦هـ) ، وعبد الله بن الحارث المخزومي .

لكن سيد هذه الطبقة بامتياز هو الإمام سفيان بن عيينة (ت ١٩٨هـ) .
خصص له الذهبي في سير أعلام النبلاء ترجمة حافلة ، قال في صدرها :
« ... الإمام الكبير ، حافظ العصر ، شيخ الإسلام ... » . وهذه التحلية من
الإمام الذهبي مفخرة لأهل مكة ، يفتخرون بها عند الحديث عن تاريخ
العلوم .

ثم ذكر الذهبي الوسيلة التي نال بها سفيان هذه المرتبة في العلم ، فقال :
« طلب الحديث ، وهو حدث ، بل غلام ، ولقي الكبار ^(١) ، وحمل عنهم علما
جما ، وأتقن وجود ، وجمع وصنف ، وعمر دهره ^(٢) ، وازدحم الخلق
عليه ، وانتهى إليه علو الإسناد ، ورحل إليه من البلاد ، وألحق الأحفاد
بالأجداد ^(٣) » .

(١) منهم عمرو بن دينار ، فقد أكثر من السماع عنه .

(٢) جزم الذهبي بأنه عاش إحدى وتسعين سنة .

(٣) سير أعلام النبلاء : ٦٥٣ / ٧ - ٦٥٤ ، رقم الترجمة ١٢٩٢ .

هذا فيما يتعلق بالعلوم الشرعية عموماً؛ أما فيما يخص علوم القرآن : فكان فيها النجم . قال عبد الله بن وهب ^(١) : « لا أعلم أحدا أعلم بتفسير القرآن من ابن عيينة » ^(٢) . وقال فيه الإمام الحافظ عبد الرحمن بن مهدي (وهو من الآخذين عنه أيضاً) : « عند ابن عيينة من معرفته بالقرآن ، وتفسير الحديث ، ما لم يكن عند سفيان الثوري » ^(٣) .

وأخبر عن نفسه بأنه قرأ القرآن وهو ابن أربع عشرة سنة ^(٤) .

وله كتاب في التفسير ، ذكره صاحب كشف الظنون ^(٥) ، وقال فيه سزكين : « استخدمه ابن حجر في الإصابة ... والثعلبي في «الكشف والبيان» برواية أبي [عبيد الله] سعيد بن عبد الرحمن المخزومي » ^(٦) .

قلت : ويروي عنه ابن جرير الطبري أيضاً في تفسيره بواسطة عمرو بن مالك ، وأبي كريب ... وينقل عنه البخاري في صحيحه في مواضع : منها قوله : « قال ابن عيينة : ما سمى الله مطراً في القرآن إلا عذاباً ، وتسميه العرب الغيث ،

(١) من أصحاب مالك المصريين (ت ١٩٧هـ)؛ أخذ عن ابن عيينة ، وهو من أقرانه . تنظر ترجمته في ترتيب المدارك لعياض : ٢٢٨ / ٣ - ٢٤٣ .

(٢) سير أعلام النبلاء : ٦٥٥ / ٧ .

(٣) السابق : ٦٦٠ / ٧ .

(٤) السابق : ٦٦٠ / ٧ .

(٥) ينظر كشف الظنون : ٤٣٨ / ١ .

(٦) تاريخ التراث العربي : ١ / ١ / ١٧٨ (في علوم القرآن والحديث) . وسعيد بن عبد الرحمن المخزومي من تلاميذ سفيان . ينظر : تهذيب التهذيب : ٢٩ / ٢ .

وهو قوله تعالى : ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا﴾ [الشورى: ٢٨] «^(١) .

قال ابن حجر مفسرا : «قوله : قال ابن عيينة إلخ : كذا في تفسير ابن عيينة ، رواية سعيد بن عبد الرحمن المخزومي عنه قال : ويقول ناس : ما سمى الله المطر في القرآن إلا عذابا ، ولكن تسميه العرب الغيث - يريد قوله تعالى : ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ﴾ ؛ كذا وقع في تفسير حم عسق .

وقد تعقب كلام ابن عيينة بورود المطر بمعنى الغيث في القرآن في قوله تعالى : ﴿كَانَ يَكُفُّكُمْ أَدَىٰ مِنْ مَّطَرٍ﴾ [النساء: ١٠٢] ، فالمراد به هنا الغيث قطعاً . ومعنى التأذي به : البلل الحاصل منه للثوب والرجل وغير ذلك» «^(٢) .

ومنها : قول البخاري أيضا : «وقال ابن عيينة : ﴿أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ [إبراهيم: ٦] ، أيادي الله عندكم وأيامه» «^(٣) .

قال ابن حجر شارحا قوله : وقال ابن عيينة : ﴿أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ أيادي الله عندكم وأيامه : وصله الطبري من طريق الحميدي عنه . وكذا رويناه في تفسير ابن عيينة ، رواية سعيد بن عبد الرحمن عنه ...» «^(٤) .

(١) صحيح البخاري ، كتاب التفسير ، باب قوله ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَتْ هَذِهِ حَقًّا مِنْ عِنْدِكَ

فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حَجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ آتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (قبل الحديث رقم ٤٦٤٨) .

(٢) ينظر : فتح الباري / ٩ / ٢٠٠ عند شرحه للموضع المشار إليه أنفا من صحيح البخاري .

(٣) صحيح البخاري ، كتاب التفسير ، باب : تفسير سورة إبراهيم ، قبل الحديث رقم ٤٦٩٨ .

(٤) ينظر : فتح الباري : ٩ / ٢٨٦ (قبل شرحه للحديث رقم ٤٦٩٨) .

ومنها : قول البخاري كذلك : «وقال ابن عيينة : ﴿أَمْثَلُهُمْ﴾»^(١) : أعدلهم طريقة»^(٢) .

قال ابن حجر معقبا : «قوله : وقال ابن عيينة (أمثلهم طريقة) أعدلهم : كذا هو في تفسير ابن عيينة»^(٣) .

ومنها : كذلك قول البخاري : «وقال ابن عيينة : ﴿الْمُخَيَّتَيْنِ﴾»^(٤) المطمئنين^(٥) : قال ابن حجر عند تفسير هذا القول : «قوله : قال ابن عيينة : ﴿الْمُخَيَّتَيْنِ﴾ المطمئنين : هو كذلك في تفسير ابن عيينة ، لكن أسنده عن ابن أبي نجيج عن مجاهد ، وكذا هو عند ابن المنذر^(٦) ، من هذا الوجه ...»^(٧) .

ومنها : قول البخاري : «قال ابن عيينة : ﴿سَبْعَ طَرَائِقَ﴾» [المؤمنون: ١٧] : سبع سماوات»^(٨) قال ابن حجر موضحا : «قوله : قال ابن عيينة : ﴿سَبْعَ طَرَائِقَ﴾ سبع سماوات : هو في تفسير ابن عيينة من رواية سعيد بن عبد الرحمن

(١) سورة طه ، من الآية ١٠٢ ، وهي قوله تعالى : ﴿إِذْ يَقُولُ أَثْلُهُمْ طَرِيقَةً﴾ الآية .

(٢) صحيح البخاري ، كتاب التفسير ، باب تفسير سورة طه ، قبل الحديث ٤٧٣٦ .

(٣) فتح الباري : ٩ / ٣٦٠ (قبل شرحه للحديث ٤٧٣٦) .

(٤) سورة الحج ، من الآية ٣٢ ، وهي قوله تعالى : ﴿وَيَشِرَّ الْمُخَيَّتَيْنِ﴾ الآية .

(٥) صحيح البخاري ، كتاب التفسير ، باب تفسير سورة الحج ، قبل الحديث ٤٧٤١ .

(٦) هو محمد بن المنذر ، الإمام المشهور صاحب التأليف المفيدة في الخلاف العالي ، منها كتابه : الإشراف على مذاهب أهل العلم ، وكتابه الأوسط .

(٧) فتح الباري : ٩ / ٣٦٧ .

(٨) صحيح البخاري ، كتاب التفسير ، باب سورة المؤمنون ، قبل الحديث ٤٧٤٥ .

المخزومي عنه» ^(١) .

من خلال هذه النماذج نلاحظ ما يلي :

- أن تفسير ابن عيينة من مصادر البخاري في كتاب التفسير من صحيحه .
- أن ابن حجر قد اطلع أيضا على هذا التفسير ، برواية سعيد بن عبد الرحمن المخزومي .
- أن الراوي الأساس لهذا التفسير هو سعيد بن عبد الرحمن المخزومي .
- أن من منهج ابن عيينة في تفسيره : شرح الآية بما فتح الله عليه ، وقد يعتمد على ما رواه عن المفسرين السابقين (ابن أبي نجيح عن مجاهد - مثلا) .
- أن تفسيره ينصب على توضيح ألفاظ القرآن التي تحتاج إلى توضيح .



(١) فتح الباري : ٣٧٦ / ٩ .

المطلب الثاني عشر الإمام الشافعي

تلقى الإمام الشافعي تعليمه الأساسي بمكة المكرمة ، واستطاع في سن مبكرة من عمره القصير (١٥٠هـ - ٢٠٤هـ) أن يستخلص زبدة النشاط العلمي المكي الذي آل إلى سفيان بن عيينة وتلاميذ ابن جريج ، ويروي ابن أبي حاتم بسنده عن عبد الله بن الزبير الحميدي : أن الشافعي قال : « كنت يتيما في حجر أُمي ، ولم يكن معها ما تعطي المعلم ، وكان المعلم قد رضي مني أن أخلفه إذا قام ، فلما ختمت القرآن دخلت المسجد ، فكنت أجالس العلماء ، وأحفظ الحديث أو المسألة ، وكان منزلنا بمكة : في شعب الخيف ^(١) ، وكنت أنظر إلى العظم يلوح ، فأكتب فيه الحديث أو المسألة . وكانت لنا جرة قديمة ، فإذا امتلأ العظم طرحته في الجرة » ^(٢) .

ويروي ابن حجر بسنده عن أبي الوليد بن أبي الجارود المكي - تلميذ الشافعي - قال : « كنا نتحدث نحن وأصحابنا من أهل مكة أن الشافعي أخذ كتب ابن جريج عن أربعة أنفس : عن مسلم بن خالد (الزنجي) ، وسعيد بن سالم (القداح) - وهذان فقيهان - ، وعن عبد المجيد بن عبد العزيز ابن أبي رواد - وكان أعلمهم بابن جريج ، وعن عبد الله بن الحارث المخزومي ، وكان

(١) موضع بمنى .

(٢) آداب الشافعي ومناقبه ، ص : ٢٤ .

من الأثبات ...»^(١).

وقال ابن أبي حاتم الرازي أيضا : «حدثنا بحر بن نصر الخولاني المصري^(٢) ، قال : قدم الشافعي من الحجاز ، فبقي بمصر أربع سنين ، ووضع هذه الكتب . وكان أقدم معه من الحجاز كتب ابن عيينة ...»^(٣).

أما فيما يخص علم التفسير فإن ابن عيينة كان «إذا جاءه شيء من التفسير والفتيا التفت إلى الشافعي ، فقال : سلوا هذا»^(٤).

وجاء في الرسالة للشافعي : «أخبرنا ابن عيينة عن ابن أبي نجيح عن مجاهد في قوله تعالى : ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمُكَ﴾ [الزخرف: ٤٤] ، قال : يقال : ممن الرجل؟ فيقال : من العرب ، فيقال : من أي العرب؟ فيقال : من قريش»^(٥).

وجاء في رواية أخرى للشافعي : «أخبرنا ابن عيينة عن ابن أبي نجيح عن مجاهد في قوله : ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح: ٤] ، قال : لا أذكر إلا ذكرت معي : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدا رسول الله»^(٦).

(١) توالي التأسيس ، ص : ٧٢ - ٧٣ .

(٢) كتب عنه ابن أبي حاتم بمصر ، ووثقه . وهو من الآخذين عن الشافعي . ينظر تهذيب التهذيب : ٢١٣ / ١ .

(٣) آداب الشافعي ومناقبه ، ص : ٧٠ .

(٤) ينظر : طبقات الفقهاء للشيرازي ، ص : ٦٧ ، وتوالي التأسيس ، ص : ٧٦ .

(٥) الرسالة للشافعي ، ص : ١٣ ، ف ٣٣ .

(٦) الرسالة ، ص : ١٦ ، ف ٣٧ . وأكثر ما ينقله الشافعي من التفسير ، ينقله عن ابن عيينة عن ابن أبي نجيح عن مجاهد . ينظر تفسير مجاهد (مقدمة المحقق : ١ / ٦٠) .

ويبعد من جهة النظر ألا يأخذ عنه تفسيره ، وهو الذي إذا جلس إلى شيخ لا يبرحه حتى يستنفد ما عنده .

إلا أنه يحق لنا أن ننبه على أن الشافعي لم يبرز في علوم القرآن تبريزه في الفقه وأصوله ، ولم يهتم بنقل التفسير اهتمامه بنقل الحديث . نعم ، نقل في كتابه «الأم» الآيات المتعلقة بالأحكام ، وتكلم عنها ، وحللها بما يقتضيه المقام : فهو يبدأ أول الباب بذكر ما فيه من القرآن - إن وجد - ويتكلم عن النسخ والمنسوخ إذا دعت الضرورة إلى ذلك ... ونجده في أول كتاب «الرسالة» الأصولي يعقد بابا يتعلق ببيان القرآن ، فصل فيه أوجه البيان في القرآن ، ثم تكلم عن بيان ما نزل من القرآن عاما ، يراد به العام ، ويدخله التخصيص ؛ وعما نزل عام الظاهر ، وهو يجمع العام والخاص ؛ وعما نزل من القرآن عام الظاهر يراد به كله الخاص ... مما يدل على أن الشافعي جنح في التعامل مع معاني القرآن إلى منهج استقرائي لاستخلاص أصول تشريعية عامة ، تعين الفقيه على الاستنباط السليم للنصوص الشرعية .

وهذا منعطف بارز في التفسير ، يحق لأهل مكة أن يفتخروا به ، لأن المخطط لهذا المنعطف : من أنفسهم . فالحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات .

